العدد السادس والعشرون
2009

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا
1377 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2009 مسيحي

- ملامح عن المذهب المالكي في الغرب الإسلامي
- الخطاب الإسلامي مميزاته والتحديات التي تواجهه
- الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير
- اللغة وصناعة الهوية

أ. د. عبدالحميد عبدالله الهرامة

كان في ظني أن الإيمان بالله بات من تحصيل الحاصل في هذا العصر الـذي تعددت نوافذ المعرفة بآثار قدرة الله وإبداعه في الكون والأحيـاء، واعتقـدت أن آخر معقل للإلحاد قد سقط بسقوط الشيوعية في موسكو، وأن العلمانية الملحـدة أضحت تترك مكانها للعلمانية المؤمنة التي هـي أقـرب للـدعوة المدنيـة منهـا إلى العلمانية القديمة، ولكنني فوجئت بوجود بقايا الإلحاد المنظم والفردي في عـصر تكاتفت فيه عناصر الإيمان بالله أكثر من أيِّ وقت مضى، فكان لابد لي من وقفـة عند هذا الموضوع لعلها تحذر وتنذر من هذا الخطر الوافـد عـلى العقـول الخاليـة الذهن فتحدث فيها ما لا تحمد عقباه.

وآخر ما سمعته عن الإلحاد المـنظم وجـود جمعيـة للملاحـدة في إيرلنـدا، تنبعث من مقولة رئيسها أفكار يضعها علماء الفكر في خانة أخطـاء التفكـير، لمـا فيها من العيوب الفكرية الشائعة، وفي مقابلة معه يقول عن الله: «إمـا أن يكـون موجوداً يدافع عن دينه، أو أن يكون غير موجود ولا ضرورة للـدفاع عـن غـير

الموجود»[1] وهي جدلية يعرفها أصحاب التفكير العلمي بخطأ «الجدل بـ (إما وإما)»[2] ويشبهون القائل بها بمن يقول إن الشيء «إما أبيض أو أسود» وهو يتغاضى عن غيرهما من الألوان، والملحد في محاجته تلك يتصور الله لاعباً أمامه، إما أن يظهر له فيبارزه أو أنه غير موجود، وهو يعتقد أن حواسه ما دامت لا تدرك الله فهو غير موجود، وإذا سُقت له المخلوقات العظيمة التي اكتشف الإنسان وجودها من خلال تأثيرها في الحياة كالجاذبية، والكهرباء، والريح لصدقك دون المطالبة بدليل، لأنه آمن بوجودها نتيجة آثارها وإن لم يرها ولم يسمعها في ذاتها، ولكنه ينكر وجود الله المؤثر الحقيقي في هذه الأشياء الكبرى لخفاء أدلة تأثيره عن بصيرته.

وقد واجهتُ أحدَ الملاحدة مباشرةً، ووجدت أن سبب إلحاده يتركز على وجود الظلم في الدنيا، فهو يقول إذا كان الله موجوداً فلماذا يُقرُّ الظلم؟ وما دام الظلم موجوداً بلا رادع فالله غير موجود! وهو تساؤل قديم وقاصر في الوقت نفسه، سببه عدم إدراكه لحكمة الله في الخلق ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فالمؤمن موقن بأن الحياة دار امتحان لقدرة الإنسان على مواجهة تكاليف الحياة ومعطياتها بالشكر على خيرها والصبر على شرها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] والابتلاء بالخير أو الشر يتطلب رد الفعل المناسب والمتمثل في الشكر والصبر، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[4]، والإجابة عن هذا السؤال وغيره واردة في القرآن الكريم وغيره، ولكنها تنفع من تسبق له من الله الهداية،

(1) ورد ذلك في مقطع من مقابلة معه بثتها قناة الجزيرة الفضائية أواخر شهر 7/ 2009.

(2) انظر: Steps in co;position 227 وورقات في البحث والكتابة 65.

(3) سورة الملك 2.

(4) سورة الفجر الآية 15 ـ 17.

أما من يغلق نوافذ قلبه عن الهدى فلن يقنعه أي دليل. ولقد تضافرت الأدلة على حقيقة الإيمان بوجود الله حتى صارت عقيدة مشتركة بين البشر باستثناء قلة ممن عميتْ بصيرتُهم عن ذاتهِ سبحانه، فوُجدتْ لدى هذه القلة عقيدةُ الإلحاد والشرك، وأنتجت أنماطاً من السلوك والتفكير غير مسؤولة، منها الإباحية، وطغيان المادة، والوجودية بما تحمله من سلوك وتفكير، وما ترتب عنها من أمراض النفوس والأجسام والعقول.

وقد توسعت ظاهرة الإلحاد في بداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة لدى طبقة واسعة من أولئك الذين خرجوا من المعركة مع الكنيسة بروح ساخرة تصرف الكنيسة في القرون الوسطى، وبعقول لا تستوعب ما في طقوسها وعقائدها من غرائب، مثل كون الله واحداً في ثلاثة، ثالثهم ابن الله الذي يموت فداء للبشرية من خطيئة آدم في بداية الخليقة، مع معتقدات أخرى محرَّفة جعلت الإلحاد مسوَّغاً لدى كثير منهم.

وكان البديل نظرياتٌ فاسدة تُنكر نسبة الخلق إلى الله، وتنسبه إلى المجهول أو إلى الطبيعة أو إلى آلهة متعددة، ولم يكن الإسلام مقدَّماً لديهم على حقيقته نتيجة للصراع المرير بين المسلمين والصليبيين في الحروب الصليبية وما نشأ عنها وقبلها من تشويه لهذا الدين القيم، الأمر الذي صرفهم عن هذه الديانة التي تجيب عن كثير من تساؤلاتهم وما يحملونه عن الدين بعامة من أفكار مشوَّهة.

ومن أكثر النظريات الملحدة شيوعاً في العصر الحديث النظرية الداروينية نسبة إلى تشارلز دارون الذي وضعها في كتابه أصل الأنواع، وناقش فيه فكرة النشوء والارتقاء، واصفاً أصل الحياة بأنها خلية في مستنقع آسن قبل ملايين السنين مرت بمراحل، كان الإنسان في بعضها قرداً، وانتهى إلى الإنسان الموجود حالياً[1].

(1) ينتشر الحديث عن هذه النظرية في عدد كبير من الكتب والدوريات، وتبقى الموسوعات ودوائر المعارف هي النافذة الأقرب للتعريف بها والتنبيه إلى مصادرها، مع الكتب المعتمدة في الخصوص مثل كتاب أصل الأنواع لتشارلز دارون الذي نشره سنة 1859.

ولكن هذه النظرية صارت تتهاوى شيئاً على أيدي النقاد في القرن العشرين، وعاد الفكر الإنساني ببراهين عملية جديدة وقوية إلى نظرية الخلق، معتمداً في تكوين براهينه على الحفريات القديمة، وعلى الحجج المنطقية، وعلى الحقائق العلمية المستفادة من تطور علم الجينات الوراثية، وعلى التجارب العلمية، وأظهرت الدراسات استحالة إيجاد خلية حية في مستنفع في كلِّ الظروف مهما طال الزمن، واستبعاد وجود أي حلقة بين الإنسان والقرد، وأبانت أن التشابه الموجود في المخلوقات الفقارية، كتساوي عدد فقرات الرقبة يدل على وحدة المصمم الذكي الذي صممها وليس على الصلة التطورية بين هذه الكائنات المتشابهة الخلق.

يقول أنتوني ستاندن «إن جزءاً كبيراً من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة، بل إننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها» ويقول أوستن كلارك «لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيّاً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره». وأبطل باستور أسطورة التوالد الذاتي. وأمام هذه الضربات المتوالية للداروينية كان لابد لأتباعها من تعديل نظريتهم التي باتت تُدرس على نطاق واسع في الجامعات، فخرجوا بفكرة المصادفة والطفرة، واعترفوا بتعدد الأصول التي تفرعت عنها الأنواع، وأقرُّوا بتفرد الإنسان برغم التشابه الظاهر بينه وبين القرد.

وجاء نقد هذه النظرية حتى من أتباعها، فآرثر كيت الداروينى المتعصب يعترف بأنها بلا براهين، ويقول: «والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق» وبالرغم من عجزهم عن إبداء الأدلة المبرهنة على صدق هذه النظرية فإن المتعصبين لها يعترفون بأن الإنسان سيد المخلوقات، بل يقول الداروينى الملحد جوليان هكسلي: «إن الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد

بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آن واحد». وهو لا يدري أن الإنسان سيتطور أبعد من التطور الذي وصل إليه في عصره، وسيعود إلى حقيقة الخلق في مقابل نظرية التطور المزعوم.

ورفض الإسلام لهذه النظرية ينصبُّ على رفض فكرة الصدفة في الخلق، وتطور الإنسان عن القرد التي رفضها العلم الحديث أيضاً، أما مبدأ وجود التطور التدريجي في الكائنات فهو من النواميس الإلهية في الكون، وقد أشار إليه القرآن الكريم في تصويره لتطور نمو الإنسان مثلاً، وعن الدهور التي لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً، وعن نشأة الكون وتوسعه، وعن أيام خلقه، فالإسلام لا ينكر في هذا الجانب التطوري، ولكن ما بني عليه من أوهام لا يمكن البرهنة عليها، وأهمها الصدفة في الخلق.

وإذا كان الإنسان سيدَ المخلوقات كما يعترف هؤلاء، وهو لا يعرف سرَّ خلقه نفسه دون الاعتماد على الدين، فأحرى بالكائنات الأخرى الأقل ذكاءً ألا تدرك ذلك، فضلاً عن أن تخلق ذاتها بهذا الإبداع العجيب! فكيف يمكنهم الزعم بأن الطبيعة، التي هي أقل مرتبة من الإنسان، خلقت شيئاً أو فعلت حدثاً. يقول دارون: «الطبيعة تخلق كلَّ شيء ولا حدَّ لقدرتها على الخلق!» ويقول: «إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت!» وقد تجاهل أن هذا الوضع الميكانيكي الدقيق إنما كان ناموساً أو قانوناً وضعه الله في الكون لينظمه بهذه الدقة المتناهية، ولا يمكنه أن يصنع نفسه.

بين طبيعي ومسلم:

أجدني أكرر هنا حواراً دار بين عالم مسلم[1] وطبيعي ملحد أوردته في كتاب «**الإسلام والصراع بين العدالة والظلم**»، حيث قال العالم المسلم: أهذه

(1) هذا العالم المسلم هو فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني في بعض محاضراته.

المخلوقات التي نشاهدها من إنسان وحيوان ونبات وجماد، خَلقتْ نفسها أم هي من صُنع الله؟ فقال الطبيعي الروسي الجنسية الذي كان يحاوره: بل هي من صنع الطبيعة. قال: ولكن هل تعتقد أن الطبيعة عاقلة وعالمة حتى تخلق كلَّ هذه الكائنات الحية والجامدة؟ وبمعنى آخر هل لها عِلم ومقصدٌ وتخطيطٌ في ما تصنعه؟ قال الطبيعي: لا. قطعاً، لا هي عالمة ولا عاقلة وليس لها مقصد مستقبلي، ولكنها الظروف الطبيعية تفعل فعلها، من حرارة ورطوبة ورياح وأمطار وغيرها من العوامل الجوية، فينتج عن ذلك هذه الكائنات التي تطورت مع الزمن لتصبح على ما هي عليه الآن.

قال العالم المسلم: فلو قلتُ لك إن حذَّاءً في بلدتنا جهَّز بدلة رجل الفضاء التي ارتداها في رحلته إلى القمر، فهل تُصَدِّق؟ قال: هذا مستحيل! لأنها تحتاج إلى علماء يعرفون الظروف المناسبة التي ستستعمل فيها هذه البدلة في بيئة أخرى مختلفة عن البيئة التي صُنعت فيها، من حيث الحرارة، والضغط الجوي، والمغناطيسية، والحاجة إلى الأكسجين، وغير ذلك، وهو ما لا يدركه ذلك الحذَّاء. ثم إن الظروف التي صُنعت فيها البدلة المذكورة غير الظروف التي ستستخدم فيها مستقبلاً، وهذا يعني اختلاف الزمان والمكان بين المصنوع وبيئة استخدامه وزمانه، وهو ما يحتاج إلى علماء لهم اختصاصات في تلك الصناعة، ومعرفة بتلك الظروف والحاجات المختلفة فيها.

فألقى العالم المسلم إليه أسئلة مسكتة فحواها: ألا ينطبق ذلك على الجنين في رحِم أمه؟ ألم يُخلق فيه الجهاز التنفسي دون أن يكون في حاجة إليه في الرحم؟ أليس ذلك مما يحتاجه الطفل بعد انتقاله إلى بيئة أخرى في نهاية أشهر الحمل؟ وهل يحتاج الجنين إلى الجهاز البصري الذي يُخلق فيه كاملاً، ويتميز بإمكانيات دقيقة لا تتم الحاجة إلى عملياتها إلا عند الخروج إلى بيئة الضوء إثر الولادة؟ وكذلك الحال في الجهاز الهضمي الجوهري في الحياة، والمتعدد الوظائف في ما بعد، فهل يستعمله الجنين في غذائه؟ أو هو مصنوع

لبيئة أخرى ويعوضه في الرحم الحبل السري؟ أم هل يحتاج الجنين إلى القدمين ليمشي في بطن أمه؟ أو إلى اليدين ليتناول بها الأشياء في ذلك الموضع؟ وهل يحتاج قبل البلوغ إلى الجهاز التناسلي الذي ولد معه كاملاً داخل الرحم ولن يكون بحاجة إليه قبل البلوغ؟ أم هل يقل التعقيد والإتقان في هذه الأجهزة عن نظائرها في بدلة رجل الفضاء؟

وإذا أصررت على أن الطبيعة صنعت كلَّ هذه الأجهزة، فهل تشك في أنها عالمة وعاقلة؟ اقتنع كلُّ من حول الرجل ممن جاءوا ليقفوا على غسيل المخ الذي أراد هذا الدبلوماسي الروسي الملحد أن يمارسه على الشيخ، أما هو فقد خشي إن قال: «نعم هي عالمة وعاقلة» أن يفقد منصبه. فقال بنبرة المهزوم المكابر: «لا عالمة ولا عاقلة»!

وتكررت المناظرة نفسها فيما بعد بين العالم المسلم وعالم طبيعي مادي المعتقد. لعله من سويسرا. ولكنه عبر عن اقتناعه الشديد بما قال الشيخ دون تردد، وطلب منه إملاء ما سمعه منه، فقال العالم المسلم: ولكنه إله واحد وليس ثلاثة. فرد العالم بقوله: بكل تأكيد.

وتدلك هذه المحاورة على أنه لا يمكن لأيِّ عاقل أن يجحد بوجود الله ولا وحدانيته بعد التأمل الواعي في الكون والحياة، وقد أُلفت في ذلك الكتب، وتلقته العقول السليمة بالقبول، وتشربته الأرواح الخيرة براحة ضمير، وجاءت به الرسالات الإلهية، وتناقلته البشرية عبر مسيرتها الطويلة جيلاً بعد جيل، حتى صار من بدائة المعقولات، وأوائل المعلومات، فمن الظلم تجاهل هذه الحقيقة الكبرى والازدراء بالداعين إليها.

وبذلك يصبح العنصر الأول من عناصر الدائرة الإيمانية غير قابل للجدل، وعلى الإنسان أن يعمق وجوده في العقل والقلب بمزيد من النظر والتأمل في مخلوقاته وإبداعه، وإذا كان دارون قد انتابه صداع. كما قال. حين نظر إلى جمال ريش الطاووس، وشك في أن يكون ذلك بالصدفة الطبيعية، فإن

اكتشاف الآلاف من الكائنات البحرية والطيور وغيرها من الكائنات الحية الجميلة والخلابة الألوان والأشكال التي لم تكن معروفة في عهد دارون سيحول صداعه إلى تراجع كبير عن نظريته، إذ كتب له أن يعيشها بالصوت والصورة الملونة في أيامنا هذه.